آداب الحوار الدعوي في ضوء قصة مؤمن آل فرعون – دراسة قرآنية

علي هاشم علي الشرفي

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد قسم علوم القرآن كلية التربية

أرحب – جامعة صنعاء

ali.alsharafi.de@gmail.com

الملخص

يتناول البحث أهم آداب الحوار الدعوي في ضوء دراسة حوار مؤمن آل فرعون مع فرعون، والذي ورد ذكر ذلك الحوار في القرآن الكريم. ويهدف إلى بيان أهم صفات المُحاوِر وأخلاقه التي ينبغي أن يتحلى بها في تعامله مع المخالف، والتعرف على أهم صفات موضوع الحوار الناجح وضوابطه، والتعريف بوسائل الحوار الناجعة لتحقيق أهداف الحوار بصورة إيجابية.

ويعالج البحث مشكلة الأسلوب الخاطئ في الحوار مع المخالف، وذلك بجمع آداب الحوار معه من خلال النظر في قصة مؤمن آل فرعون كما وردت في القرآن الكريم؛ فحوار مؤمن آل فرعون كان مع واحد من أشد الناس طغيانا وأكثرهم مخالفة، والقصة تمثل نموذجا متكاملا في أدب الحوار مع المخالف، خلدها القرآن بالذكر لتتعلم منها الأمة المسلمة الحوار مع الأمم المخالفة إلى قيام الساعة.

ويعتمد البحث على المنهج الوصفي بذكر الحوار كما جاء في الآيات القرآنية، والمنهج التحليلي بالدراسة والاستنباط لاستخراج أهم آداب الحوار في الدعوة إلى الله تعالى.

واقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة، ومبحث تمهيدي فيه نبذة عن مؤمن آل فرعون، ومبحثين يحتوي المبحث الأول منهما على صفات المحاور وأخلاقه في ضوء قصة مؤمن آل فرعون، ويحتوي المبحث الثاني منهما على موضوع الحوار ووسيلته، مع خاتمة ثم أهم المراجع والمصادر.

5

Abstract

The present research focuses on the most important features of missionary dialogue with opponents, through the study of dialogue between the Pharaoh Believer and Pharaoh, which was mentioned in the Holy Qur'an. The aim of this research is to clarify the most important characteristics and ethical obligations of speakers during hhe dialogue with opponents. This research also aims to identify the topics and strategies of successful dialogues in order to positively achieve the objectives of the dialogue. The present research addresses the wrong methods during dialogue with opponents by providing a brief description of the Pharaoh Believer which was mentioned in the Holy Qur'an. Notably, this dialogue was conducted with one of the most contrary and worst tyranny, Pharaoh, and this story is immortalized in the Holy Qur'an to be a perfect example which shows all etiquettes of dialogue. Both descriptive approach, by providing dialogue as mentioned in the Holy Qur'an, and analytical approach, by analysis and conclude the most important etiquettes of dialogue, were used in this research. This research is structured as follows: introduction, preface, two chapters and conclusion. In the preface, we presented a brief description of the Pharaoh Believer. The first chapter focused on the characteristics and ethical obligations of speakers whereas the second chapter focused on the topic and strategies of dialogue, followed by a conclusion which contains the most important references.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** (النحل: 125)، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين. **وبعـــــد:**

فإن الدعوة إلى الله تعالى هي أحسن القول **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** (فصلت: 33)، ولها مكانة عظيمة في الإسلام، قال تعالى: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** (يوسف: 108)، ويعد الحوار من أبرز وسائل الدعوة إلى الله، فهو الوسيلة الأولى للتواصل والتفاهم والاقناع، وكلما كان الحوار مقنعا وقائما على أسس علمية وأخلاقية صحيحة كان مثمراً ثماراً طيبةً.

وقد قص علينا القرآن الكريم العديد من القصص الدعوية المملوءة بالحوارات الهادفة والنتائج النافعة، ومن أشهر تلك الحوارات قصة مؤمن آل فرعون، فهي قصة إيمانية دعوية حوارية، تتضمن آداب الحوار مع العدو المتكبر المتعجرف (فرعون)، ومن المفيد أن تكون آدابها مع من هو أحسن حالا من فرعون.

ومع ما يعيشه العالم اليوم من قضايا العصر المتنوعة والمختلفة في ظل الانفتاح الثقافي الكبير أو ما يسمى بـــ(عصر العولمة) و(القرية الكونية الواحدة) و(حوار الحضارات) و(حوار الثقافات) و(حوار الأديان) سواءً كان كل ذلك مباشراً من خلال الندوات والمؤتمرات واللقاءات المختلفة، أو غير مباشر من خلال الفضاء المفتوح ومواقع التواصل الاجتماعي الذي لا تكاد تختفي فيه الأفكار مهما كانت غرابتها. فإن تحسين وتجويد الخطاب والحوار الدعوي مع ما يتناسب وهذه التطورات والاكتشافات المتسارعة ويتناسب مع حال جمهورها وأفكارهم والعوامل المؤثرة فيهم من الضرورات الملحة والمستمرة حتى تؤتي الدعوة ثمارها الطيبة نقية خالية من شوائب الافراط والتفريط.

قد تُطرح الفكرة الغريبة وتنتشر في فضاءات واسعة وتكثر الحوارات حولها نقداً وتحليلاً ونقاشاً وغير ذلك، بينما يغيب الدعاة وأهل العلم والخبرة والوسطية عنها، وقد يشارك فيها من لا يحسن الحوار فيسيء ولا يحسن، ويعقد المشكلة ولا يحلها، ولا غرو أن يكتشف العالَم أن كثيرا ممن ينساقون إلى منظمات

الإرهاب والغلو كانت سنانير اصطيادهم قد رميت لهم كطعمٍ في أعماق تلك البحار المتلاطمة، فلم يستطيعوا فكاكا من شباك تلك الشبكات الإلكترونية.

إن غاية الحوار مع المخالفين في القرآن الكريم إنما هو لتبيين آداب الحوار مع المخالف، وتوضيح مقاصده ووسائله حتى يؤتي ثماره ويحقق أهدافه، حيث شغلت تلك القصص ثلث القرآن تقريباً، قال ابن تيمية: (قال طائفة من أهل العلم: إن القرآن باعتبار معانيه ثلاثة أثلاث: ثلث توحيد، وثلث قصص، وثلث أمر ونهي")[1]. والقصص في القرآن بمجمله –في الغالب– قصص بأسلوب الحوار.

وبناء على ما تقدم فإن هيكل البحث يشتمل على الآتي:

أولا: أهداف البحث

1- بيان أهم صفات المُحاوِر وأخلاقه التي ينبغي أن يتحلى بها في تعامله مع المخالف.

2- التعرف على أهم صفات موضوع الحوار الناجح وضوابطه، والتعريف بوسائل الحوار الناجعة لتحقيق أهداف الحوار بصورة ايجابية مع المخالف.

ثانيا: مشكلة البحث

يعالج البحث مشكلة الأسلوب الخاطئ في الحوار مع المخالف، وذلك بجمع آداب الحوار معه من خلال النظر في قصة مؤمن آل فرعون كما وردت في القرآن الكريم، فحوار مؤمن آل فرعون كان مع واحد من أشد الناس طغيانا وأكثرهم مخالفة، والقصة تمثل نموذجا متكاملا في أدب الحوار مع المخالف، خلدها القرآن بالذكر لتتعلم منها الأمة المسلمة الحوار مع الأمم المخالفة إلى قيام الساعة.

ثالثا: منهجية البحث

يعتمد البحث على المنهج الوصفي بذكر الحوار كما جاء في الآيات القرآنية، والمنهج التحليلي بالدراسة والاستنباط لاستخراج أهم آداب الحوار في الدعوة إلى الله تعالى.

رابعا: مخطط البحث

- المقدمة: وتشمل: أهداف البحث، ومشكلة البحث، ومنهجية البحث، ومخطط البحث.

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج17 ص207.

- المبحث التمهيدي: وفيه نبذة عن مؤمن آل فرعون، ومؤشرات النجاح.
- المبحث الأول: صفات المحاور وأخلاقه في ضوء قصة مؤمن آل فرعون، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: صفة الرحمة والتواضع.

المطلب الثاني: صفة الحرص على المحاور ومحبة الخير له.

المطلب الثالث: صفة الفهم والحكمة.

المطلب الرابع: صفة الصبر والشجاعة.

المطلب الخامس: صفة النظر في جميع أدلته (التقسيم).

- المبحث الثاني: موضوع الحوار ووسيلته، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الوضوح.

المطلب الثاني: أن يكون موضوع الحوار مناسباً للواقع.

المطلب الثالث: عدم الخوض في الفرعيات.

المطلب الرابع: اختيار الألفاظ.

المطلب الخامس: المجاراة في الحوار.

- الخاتمة، وتشمل: أهم نتائج البحث وتوصياته.

المبحث التمهيدي

نبذة عن مؤمن آل فرعون

ورد في القرآن الكريم ذكر مؤمن آل فرعون في حواره مع فرعون وقومه، واسم السورة التي وردت فيها القصة (سورة غافر)، ولها اسم آخر مرتبط بهذه القصة (سورة مؤمن) نسبة لمؤمن آل فرعون.

قال ابن كثير رحمه الله: (المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون، وقال السدي: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام، واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم...، وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل)[1].

وصف القرآن مؤمن آل فرعون بصفات مجمله ليس فيها تفصيل، وذلك بما يتناسب مع أخذ الفائدة والعظة والعبرة، إذ أن كثير من التفاصيل حول معرفة مؤمن آل فرعون لا فائدة عملية من وراء معرفتها، ولذلك يسرد القرآن ما هو مهم ونافع لقارئ القرآن، (إن مؤمن آل فرعون من مبهمات القرآن التي لم تبين فيه، ويجب أن يبقى من المبهمات حيث أبقاه القرآن، ولا يجوز الذهاب إلى الإسرائيليات لتبيين أمره، وإننا بدل أن نخوض فيما لا علم لنا به، مطالبون بالوقوف أمام قصته في القرآن، لنأخذ منها اللفتات والدلالات والدروس والعبر)[2].

وهذه هي الآيات التي ورد فيها ذكره، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ

(1) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير)، تفسير القرآن العظيم، ج7 ص140.

(2) د. الخالدي (صلاح عبدالفتاح)، مع قصص السابقين في القرآن الكريم، ج3 ص710.

مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) ﴾(غافر: 28-45).

مؤشرات النجاح:

أشارت الآيات القرآنية إلى أن مؤمن آل فرعون تمكن -بفضل الله- من أن ينقذ موسى عليه السلام من الموت بعد أن حكم عليه فرعون بالقتل ونجا هو معه، قال تعالى: **﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾**، (معناه: أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن وقاه الله مكرهم، ورد العاقبة السيئة عليهم، فرد سوء مكرهم إليهم، فكان المؤمن المذكور ناجيا في الدنيا والآخرة، وكان فرعون وقومه هالكين)[1].

وهذه الإشارة بعد محاورة مؤمن آل فرعون بإتمام فعل المؤمن بالنجاة والنجاح تدل على أن بذل الأسباب السليمة في الحوار بشكل صحيح تثمر الثمرة الطيبة المرجوة، فالحوار القائم على الأسس الصحيحة هو

(1) الشنقيطي (محمد الأمين)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج6 ص388.

سبيل الإقناع والتواصل والتفاهم، وهو منهج الدعوة والإصلاح الذي يجمع ولا يفرق، وهو سَنَنُ الأنبياءِ عليهم السلام والمصلحين من بعدهم مع أقوامهم لإقامة الحجج ودفع الضرر وإرضاء الله تعالى.

المبحث الأول

صفات المحاور وأخلاقه في ضوء قصة مؤمن آل فرعون

الحوار عملية تشاركية بين طرفين فكلاهما مُحاوِر ومُحاوَر، فـــ(تَحاوَرُوا: تَراجَعُوا الكلامَ بينهمْ)[1]، ومن لا يُحسن الاستقبال من الآخر لا يمكن أن يُحسن الارسال.

والمخالف الذي يقصد الحوار معه قد يكون مخالفا في أصل الدين كفرعون مع مؤمن آل فرعون، أو في المذهب أو الفكر والرأي، وقد يكون المخالف مصيبا أو محقا في كل ما يقول أو بعضه.

ولشخصية المحاوِر ومؤهلاته العلمية والسلوكية أثر واضح ومهم في اقناع الآخرين بما يحمل من منهج وفكر وقضية، ولذلك كان اصطفاء الله للرسل عليهم السلام ليقوموا بمهمة البلاغ بمؤهلات واضحة، فسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم كان يسميه قومه: الصادق الأمين من قبل البعثة، وهو كذلك من أفضل الناس نسبا وأدبا، وهو الذي كان يستمع للآخرين حتى قال عنه بعض الناس: **﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾** (التوبة: 61).

المطلب الأول: صفة الرحمة والتواضع

من أهم صفات المحاور الناجح أن يكون رحيما متواضعا، فالفرق كبير بين من ينطلق في دعوته وحواره مع المخالف من منطلق الرحمة به والتواضع، وبين من ينطلق في حواره من منطلق الصراع والغلبة والتعالي، فالأول يبتغي الهداية والمصلحة له وللمخالف، والآخر يبتغي الغلبة عليه واذلاله، يقول تعالى واصفا سيد الدعاة محمدا صلى الله عليه وسلم: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾** (الأنبياء: 107).

(1) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص381. مادة (الحَوْرُ).

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه)[1]، ويخطئ بعض الدعاة حينما يبرروا لغلظتهم وشدتهم على مخالفيهم بالحرص عليهم بإنقاذهم من النار وإدخالهم الجنة، أو بالحرص على الإسلام والسنة من الضياع والتبديل، وكأنهم أرحم بعباد الله وأحرص على دين الله من الله، وليعلم من يظن ذلك بأن دين الله محفوظ منصور، وأن ناصره هو ربُّ العالمين، وأن الواجب على الدعاة الدلالة والإرشاد بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

وقد صور لنا القرآن الكريم صورة حية لحوار (مؤمن آل فرعون) الذي تمثل في حواره معاني الحرص والحب لقومه، فظهرت الرحمة في كلماته مع محاوريه حتى وإن كانوا يقابلوا تلك اللغة بمزيد من الإيذاء، فلم يناد بسفك دماء مخالفيه ولا استئصالهم.

وعندما أراد مؤمن آل فرعون أن يتحدث عن الـــمُلك قال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾، "لكم الملك" ولسان حاله يقول: لست شريكا لكم في ملككم ولا أنا طامع به ولا أنظر إليه، لكنه عندما جاء الحديث عن بأس الله وعقابه لم يجعل لنفسه في حواره نجاة دونهم فقال: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾، ولم يقل فمن ينصركم من بأس الله إن جاءكم إنما قال: فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا، فهو شريكهم في المغرم لا المغنم.

ثم ضرب لهم أمثلة من الأمم السابقة تبين لهم سبب خوفه عليهم من عذاب الله ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾، وبكل معاني الرحمة يبين لهم أنه يريد نجاتهم فقط، ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ(42)﴾

ويتضح من حديث مؤمن آل فرعون إلى قومه رحمته بهم من خلال اظهاره لحقيقة الدنيا وأنها فانية وزائلة، وأن الآخرة هي الباقية فلا ينبغي لعاقل أن يشتري الفانية بالباقية: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

(1) النيسابوري (مسلم بن الحجاج)، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، ج8 ص22، رقم الحديث (6767).

مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ(39)﴾، فالتعلق بالدنيا سبب رئيس لمحاربة الحق، والالتصاق بالباطل ومساندته.

وكان موسى عليه السلام ومؤمن آل فرعون يدركان جيدا أنهما يحاوران رجلا امتلأ قلبه كبرا بما آتاه الله من ملك وقوة ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾. فكانت آخر كلمات موسى عليه السلام قبل أن يبدأ مؤمن آل فرعون حواره مع قومه هي قوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ (غافر: 27-28)، وفيها الاستعاذة بالله من الكبر والمتكبرين.

فالكبر أحد أهم الأسباب الدافعة للكفر بالله والاعراض عن الحق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق، وغمط الناس).[1]

المطلب الثاني: الحرص على المحاوَر ومحبة الخير له

يحتاج المحاوِرُ في مستهل حواره أن يوصل رسالة إلى الطرف الآخر في الحوار يشعره من خلالها أنه حريص عليه وعلى مصلحته ومنفعته العاجلة والآجلة، ويظهر ذلك من خلال اشباع الحوار بكلمات الود والحرص والاشتراك في شؤون الحياة، أما الحوار الذي يشعر السامع بأن الداعي منفصل عنه وعن مجتمعه وواقعه، فإنه يكون بذلك قد صنع حواجز مانعة تمنع من الوصول إلى الحقيقة عن طريق الحوار معه.

خطاب مؤمن آل فرعون مع قومه يدل على ذلك الحرص والحب، فمن حرصه عليهم تذكيره لهم بهلاك الأمم السابقة وبيوم القيامة، فكان يمزج حديثه بعبارات الحرص والخوف عليهم بألفاظ صريحة، وكان يخاف عليهم من عذاب يصيبهم في الدنيا كيوم الأحزاب ومن عذاب في الآخرة يوم التناد: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾، ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾.

(1) النيسابوري (مسلم بن الحجاج)، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ج1 ص65، (رقم الحديث: 275).

وفي هذا يظهر أن حرصه على مصلحتهم كان صادقا نابعا من وجدانه وعبر عنه بلسانه. قال الشوكاني رحمه الله: (كرّر ذلك الرجل المؤمن دعاءهم إلى الله، وصرّح بإيمانه، ولم يسلك المسالك المتقدّمة من إيهامه لهم أنه منهم، وأنه إنما تصدّى التذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى كما يقوله الرجل المحبّ لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾)[1].

إن أهم ما يحتاجه الداعية في خطابه وحواره أن تكون عباراته مليئة بالمحبة للآخرين والحرص عليهم حتى يشعر المدعوون بقربه لا بعده وصداقته لا عداوته، (فلما هم فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام، وعزم على ذلك، وشاور ملأه فيه، خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه بين الترغيب والترهيب)[2].

يبدو الحرص على المخاطب من الكلمات والنظرات وقسمات الوجه، وأهمها الكلمات الصادقة (ولَاحِظ تحببه إلى قومه وتقربه منهم، واعتبار نفسه واحدا منهم، يهمه أمرهم، ويحرص على مصلحتهم. ويبدو هذا من قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾، ومن جَعْلِه نفسه معهم: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾)[3].

المطلب الثالث: صفة الفهم والحكمة

إن فهم حال المدعوين والتعامل الحكيم معهم يعتبر واحداً من الركائز والصفات المهمة في الحوار والدعوة إلى الله مع المخالفين، وبدون ذلك فإن الضرر أكثر من النفع والافساد أكثر من الإصلاح، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة)[4].

---

(1) الشوكاني (محمد بن علي بن محمد)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج6 ص327.

(2) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير)، البداية والنهاية، ج1 ص260.

(3) د. الخالدي (صلاح عبدالفتاح)، مع قصص السابقين في القرآن الكريم، ج3 ص726.

(4) النيسابوري (مسلم بن الحجاج)، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، ج4 ص98.

وصف الله تعالى مؤمن آل فرعون بأنه كان: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾، ولم يكن فعله ذلك إلا تعبيرا عن فهمه لحال قومه وطغيانهم وحكمته في التعامل معهم.

ومن حكمة مؤمن آل فرعون: أنه كان يحاور مخالفيه بلغة الحريص على حياتهم وعلى طمأنينة وسلامة المجتمع –كما مر في المطلبين السابقين– ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾، وهذا دليل واضح للفهم والحكمة التي اتصف بهما مؤمن آل فرعون.

ولربما أنكر بعض الدعاة اليوم ممن لا يفقه الحكمة وحسن التعامل مع المخالفين، خاصة إذا كان من ذوي السلطان في الأرض مثل هذا القول، وربما عُدّ مثل هذا الكلام عندهم نوعا من الضعف في التوكل على الله وفي توحيد الحاكمية، لكن يكفي لإثبات صحة مثل هذا التصرف الحكيم أنه ورد في القرآن الكريم في سياق المدح.

وكان من فطنة الرجل المؤمن وحكمته: أن يظهر خطابه لمن يحاورهم بمظهر الخطاب المحايد، فهو تارة يفترض في دعوة موسى الكذب لكنه يستخدم ذلك الافتراض في خدمة فكرته: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، ثم أكد ذلك المعنى والفهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، فقد أثبت القدرة على الهداية لله أمام فرعون الذي كان يرى نفسه إلها، وإن خرج الكلام منه مخرج المحاور الذي لا يعرف من هو المسرف الكذاب.

وفي نفس المحاورة يقول لهم: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، استمراراً مع خط الفطنة والحكمة التي يسير فيها المؤمن فقد أثبت هنا أيضا حيادية خطابه بقوله: "بعض" رغم إيمانه بصدق موسى عليه السلام في كل ما يقول وليس في بعضه، وبحسن أسلوبه أوصل إليهم رسالته التي تتوقع لهم نهاية غير محمودة إذا استمروا في تكذيبهم لموسى عليه السلام، ووقوع بعض ما يعدهم به موسى كاف لهلاكهم وعذابهم.

ومن الفهم والحكمة في الحوار: أن لا ينسب المحاور لنفسه الحق المطلق في الحوار، فإن ذلك يفسد الحوار، ويقود إلى العناد والتكذيب من الآخر، فمؤمن آل فرعون –رغم إيمانه الصادق الذي شهد له به القرآن– كان يحاور ولا ينسب لنفسه وأفكاره الحق المطلق بل جعلها مسألة نسبية تحتاج إلى البحث عن الدليل لإثباتها أو نفيها "إن يك"، وهو بهذا يستخدم المنهج الذي أقره القرآن: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: 24).

ومن فهمه وحكمته: أنه بدأ بافتراض الكذب في كلام موسى عليه السلام، فقال: "إن يك كاذبا" قبل أن يقول: "إن يك صادقا"، فهو يحاور بالأسلوب الذي يحافظ به على ديمومة الحوار ومناخ الدعوة، فيحبب لهم كلامه بالافتراض الذي يتمنوه، ويعطيهم دروسا مهمة في التفكير والمنطق والحوار وحسن اتخاذ القرار قبل دروس التوحيد والإيمان.

المطلب الرابع: صفة الصبر والشجاعة

سنة الله في الدنيا أنها دار ابتلاء، وأشد الناس بلاءً هم الأكثر قربا من الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ من أشدِّ النَّاسِ بلاءً الأنبياء، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونَهم، ثمّ الذين يلونَهم)[1]، وكذلك يُبتلى الدعاة إلى الله، ولا سلاح أمام الابتلاء إلا الصبر، فهو قوة دافعة للاستمرار في تحقيق الغاية المطلوبة من المسلم في الدنيا وتحقيق مرضاة الله، ومن ذلك الدعوة إلى الله. ومن لا يصبر إما أن ييأس فينعزل عن المجتمع أو يتحول إلى إنسان مشاكس يُكفِّر الآخرين ويبدعهم، ويبحث عن وسائل الموت لنفسه وللآخرين، لنفسه تحت لافتة الشهادة في سبيل الله أو لهم تحت لافتة التكفير والردة.

في الدعوة إلى الله يظهر صدق الاعتماد عليه من الاعتماد على القوة والركون على المصلحة، فإذا جاءت المخاطر وتكالبت النوائب ظهرت المعادن على حقيقتها، وكانت وصية لقمان عليه السلام لابنه بالصبر بعد أن وصاه بالدعوة إلى الله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: 17).

وكان سيدنا موسى عليه السلام قدوة في تعليم الآخرين الصبر، فإذا ادلهمت به الخطوب واشتدت عليه وطأة الظالمين عاد إلى الله ولجأ إليه، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾. وتبع مؤمن آل فرعون خطوات نبي الله موسى عليه السلام في ذلك الخُلق، فكان يردد عند نزول الفتنة وحلول المصيبة ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾، فقال الله تعالى بعدها: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾.

(1) الألباني (محمد ناصر الدين)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج26 ص70.

والشجاعة ملازمة للصبر، وكذلك كان هذا الرجل المؤمن، ففي وصف الله له بالرجولة ﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ إشارة لشجاعته، وتظهر شجاعته جليةً في تفاصيل القصة، فلم يأبه بفرعون وجبروته وجنده وأعوانه، وكان موقفه الشجاع أمام واحد من أبرز طغاة الدنيا.

افتتح مؤمن آل فرعون كلامه أمام فرعون بكلمة عظيمة تحتاج إلى لسان رجل شجاع: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّـهُ﴾، (كان هذا الرجل المؤمن بين خيارين أحلاهما مر: فإما أن يبقى كاتما لإيمانه، مؤثرا السلامة والعافية، ولو قُضي على الدعوة وقائدها. وإما أن يظهر إيمانه، ويتقدم للدفاع عن دعوته وقائده، ولو كشف أمره، وعرض نفسه للأذى والخطر. لقد اختار الخيار الثاني، وكان رجلا عظيما في إظهار إيمانه، كما كان من قبل رجلا عظيما في كتم إيمانه)[1].

ولا يلجأ للعنف في الغالب إلا قليل الصبر أو الجبان الخائف أو ضعيف الحجة.

المطلب الخامس: النظر في جميع أدلته (التقسيم)

لا بد للداعية أن يكون ذا بصيرة في دعوته وحواره مع الآخرين، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّـهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: 108)، ومن البصيرة: معرفة جميع أدلة المحاور والرد المناسب عليها، وهذا أمر مهم حتى يستأصل كل الشبه العالقة في أذهان المحاوَرين ومن لهم علاقة بالحوار، وهو الذي يُطلق عليه (التقسيم)، (وهو استيفاء المتكلم أقسام الشيء بحيث لا يغادر شيئا، وهو آلة الحصر ومظنة الإحاطة بالشيء، كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (فاطر: 32)، فإنه لا يخلو العالم جميعا من هذه الأقسام الثلاثة: إما ظالم نفسه، وإما سابق مبادر إلى الخيرات، وإما مقتصد فيها، وهذا من أوضح التقسيمات وأكملها)[2].

حينما كان فرعون يلقي بشبهه على آذان الناس كان مؤمن آل فرعون يرد عليه فيأتي على تلك الشبه من القواعد ولا يترك أي ثغرة للشك والتساؤلات، كان فرعون يستدل على عزمه في قتل موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، وكان رد المؤمن شاملا لكل الشبه التي اعتمد عليها فرعون، فقد (أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذبا أو

(1) د. الخالدي (صلاح عبدالفتاح)، مع قصص السابقين في القرآن الكريم، ج3 ص720.

(2) الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر)، البرهان في علوم القرآن، ج3 ص471.

صادقا، ﴿وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره، ﴿وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ﴾ ما يعدكم إن تعرّضتم له)[1]. وخلاصة القول: أنه لا حاجة لكم لدفع شره –كما تزعمون– إلى قتله.

وبنفس الطريقة يعرج في حديثه إلى موضوع الهداية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾. والمعنى إذا كان موسى سائراً في طريق الكذب والتجاوز فلن تشمله هداية الله، وإذا كنتم أنتم في طريق الكذب والتجاوز فستحرمون من هداية الله كذلك.

المبحث الثاني

موضوع الحوار ووسيلته

المطلب الأول: الوضوح

الوضوح في الحوار مع الآخر من حيث الهدف والموضوع والأدلة، فحينما يكون الحوار غير واضحٍ في الهدف منه فإنه يصبح حوارا كثير التفريعات: يستنزف الوقت، ويعقد المشكلة، ويزيد الهوة بين طرفي الحوار، ولا يحقق ثمرة ايجابية بعد ذلك، ولذلك فلا بد لرسالة المحاور أن تكون واضحة في موضوعها وهدفها وأدلتها.

كان فرعون يراوغ في الحوار، ويحاول تغطية مطامعه الشخصية خلف شعارات براقة، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، وهذا الكذب والخداع أسلوب كل من فقد الحجة والبرهان، (أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق واحد. يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر. والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان. والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين)[2].

---

(1) الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج4 ص126.

(2) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج5 ص3087.

وكان مؤمن آل فرعون واضحا في حواره، فقد كان هدفه الأول حماية سيدنا موسى عليه السلام من بطش فرعون وقومه حتى لا يُقتل، ولذلك افتتح القرآن الحديث عنه وهو يحدد هدفه وقضيته بوضوح بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، وكذلك ينبغي أن يكون المحاوِر واضحا في طرحه عندما يدخل في موضوع الحوار.

ومن الوضوح في الحوار: وضوح الأدلة فيه، ففي حوار مؤمن آل فرعون مع قومه يتضح أنه كان يحاور قومه وهو يملك الحجة البينة والأدلة القاطعة، فقد أحضر لهم أدلة من التاريخ تثبت صدق كلامه وصحة رسالة موسى عليه السلام، وكانت تلك الحوادث في أمم سبقتهم حينما كفرت برسلها فأهلكها الله (قَوْمِ نُوحٍ، قوم عَادٍ، قوم ثَمُودَ).

وحدثهم عن تاريخ مصر التي يعيشون فيها، فذكرهم بيوسف عليه السلام حين جاء بالبينات فشك فيه الناس ثم آمنوا به بعد أن كادت النجاة تفلت منهم، وهو بتلك الأدلة والبراهين الواضحة يستثير عقولهم للتفكير والنظر في رسالة موسى عليه السلام، ونجح في اقناع الحاضرين بأن قتل موسى فعل غير ممدوح العواقب والنتائج.

والوضوح يحتاج إلى علم ومعرفة، ففي سياق ايراد مؤمن آل فرعون للأدلة والبراهين الواضحة يلتفت السياق الحواري القرآني إلى العلم الذي يزيل كل شائبة يمكن أن تخدش وضوح وجه الحقيقة، ومن لا يملك الحجة المصحوبة بالعلم في الحوار إنما يستجلب مقت الله عليه، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾، وهذه الآية وردت بين الآيات التي ذكرت الحوار.

المطلب الثاني: أن يكون موضوع الحوار مناسباً للواقع

المتتبع لمنهج الأنبياء ومن تبعهم من الدعاة المصلحين في دعوتهم لأقوامهم يجد أن خطابهم وحوارهم كان متفاعلاً مع قضايا مجتمعاتهم وواقعها، خطابٌ يعيش الواقع ويتعاطى معه ويُقوِّم اعوجاجه، ولم يكن خطاباً جامداً معزولاً عن تفاعلات الواقع وقضاياه، فلوط عليه السلام كان يذكر قومه بالأخلاق الفاضلة التي افتقدوها، وشعيب عليه السلام كان يأمر قومه ألا يطففوا المكيال والميزان، لأن هذه القضايا هي أهم المشاكل الموجودة في أقوامهم بعد توحيد الله تعالى.

ويختار كثير من الدعاة اليوم في حوارهم وخطابهم مع المخالف طريق الهروب من الواقع ومعالجاته وتحدياته وآماله، فيستغرق بصورة مبالغ فيها في تناول القضايا التاريخية، أو الحديث عن الساعة وأماراتها والموت وما بعده –رغم أهمية هذه المواضيع– إلا أنها تتحول في الغالب إلى نوع من الترويح عن النفس بالبعد عن قضايا الواقع.

وإنما جاءت نصوص الوحي مرشدةً للناس ومعالجةً لواقعهم، ولتجعل من المسلم إنسانا متفاعلا مع واقعه تفاعلا إيجابياً نافعاً، فلا هو حبيس فهم النصوص بصورة تجردها عن مقاصدها وروحها، ولا حبيس الماضي، ولا هو مثالي ينقل غرائب ما ورد عن الأولين من سلف الأمة في مجال العبادات والزهد ما يجعل تلك التجارب تبدو خيالية صعبة المنال، لكنه رحمة الله للعالمين به تصلح أحوال الناس في الدنيا والآخرة، فإن صدقوه انتفعوا، وإن كذبوه قال لهم كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾.

ومؤمن آل فرعون كان يبذل جهده في حماية موسى عليه السلام من القتل باعتبارها القضية الملحة في واقعه، ومع ذلك كان يمثل الامتداد الدعوي لخطاب سيدنا موسى عليه السلام في الدعوة إلى وحدانية الله، وكذلك كان يعالج بحواره وخطابه وحسن بيانه في قومه طاغوتية فرعون ليحررهم من استعباده، وكان يكافح ويناضل في مواجهة هذا الاستبداد السياسي والديني والاجتماعي الظالم، قال تعالى على لسانه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ... يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ... وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ...﴾.

ومن مناسبة الواقع: ترتيب الأولويات. ففي الحوار الدعوي يظهر للداعية الكثير من القضايا التي تستحق الاهتمام والطرح، ومالم يكن مدركا لأولوياته فإنه سينجر لنقاش القضايا التي لا تحتل صدارة الأولويات لديه، ومن خلال التأمل في حوار مؤمن آل فرعون تظهر أولوياته التي كان يهتم بها بوضوح.

وكان حوار مؤمن آل فرعون يدور حول قضيتين رئيستين، فافتتح حواره بالقضية الأولى التي يمكن أن يقال عنها: أنها تهتم بحق الإنسان في الحياة ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، ونجح في حماية موسى عليه السلام من القتل، فكان ذلك صدر كلامه وأول ندائه. ثم انتقل للحديث عن القضية الثانية التي تهتم بتوحيد الله وترك كل مظاهر الشرك، فبتوحيد الله يتحرر الناس من فرعون وطغيانه واستعباده لهم.

المطلب الثالث

عدم الخوض في الفرعيات

لم يلتفت مؤمن آل فرعون لترهات فرعون الذي كان يسير بالحوار بعيدا عن موضوع الحوار الناجح، فحينما كان مؤمن آل فرعون يطرق أسماعهم بحججه القوية وأدلته الواضحة كان جواب فرعون بكلامه الذي كان بعيدا عن أصل موضوع الحوار والتي ذهبت مثلاً بعده لكل الطغاة: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾، ومع ذلك لم يلتفت الرجل المؤمن إلى مثل هذه الكلمات، ففي اظهار الحق وأدلته ما يغني أهل العقول عن الرد على هذه الكلمات الفارغة.

وفي مسألة الهداية: كان رد الرجل المؤمن على كلام فرعون فيها حين قال: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، واضحا وبصورة مباشرة لأنها محور مهم في حواره، وقضية رئيسة في عقيدته ودعوته، ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

وفي أثناء الحوار أراد فرعون أن يشغل الناس والملأ من حوله بقضية طويلة الأمد وإن كانت ضعيفة الدلالة، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾، ويبدو أنه لم يكن هروب فرعون للحديث عن بناء الصرح إلا لأن مؤمن آل فرعون قد تمكن من تحقيق الهدف من الحوار باقناع الناس بأن لهم إلهاً فوق فرعون الذي ادعى الألوهية، فأراد فرعون أن يعالج هذه المشكلة باختلاق بناء الصرح للبحث عن إله موسى، ومضى مؤمن آل فرعون في حواره يسرد قضيته ويبين أدلتها دون الاكتراث لما يهذي به فرعون.

ولو أن مؤمن آل فرعون انشغل بالردود على باطل فرعون لضاعت الحقيقة عن الناس كما تضيع الجوهرة الثمينة في وسط كوم من القش، فلم تكن حجج فرعون تلك وطلباته إلا هروبا من الحقيقة واستهزاء بمن يحاوره وتضييعا للوقت.

المطلب الرابع

اختيار الألفاظ

الألفاظ هي قوالب المعاني، وقد يكون للفظ الواحد أكثر من معنى، فإذا تغيرت الألفاظ أو أساليب حكايتها تغير فهمها أو أثرها عند السامعين، ومن ذلك ما جاء في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ (البقرة: 104). (قال أبو جعفر: والصواب من القول في نهي الله جل ثناؤه المؤمنين أن يقولوا لنبيه: "راعنا" أن يقال: إنها كلمة كرهها الله لهم أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم، نظير الذي ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تقولوا للعنب الكرم، ولكن قولوا: الحبَلة"، و"لا تقولوا: عبدي، ولكن قولوا: فتاي"، وما أشبه ذلك، من الكلمتين اللتين تكونان مستعملتين بمعنى واحد في كلام العرب، فتأتي الكراهة أو النهي باستعمال إحداهما، واختيار الأخرى عليها في المخاطبات)[1].

والواجب على الدعاة إلى الله أن يحسنوا اختيار ألفاظ الحوار مع الآخرين، وأول كلمات يسمعها المحاوَر والتي تولد لديه انطباعا سلبيا أو ايجابيا هي ألفاظ النداء، فبعض ألفاظ النداء تعني أن المتحاورين فريقين متخاصمين لا باحثين عن الحقيقة (أنتم – نحن)، وربما تكون فيها التهمة الصادمة والمنفرة، وهي بمثابة إصدار حكم أكثر من كونها وسيلة نداء وحوار (يا كفرة، يا فسقة، يا ظلمة)، أو كأنه قادم من عالم الطهارة وهم من عالم النجاسة والرذيلة.

لقد كان الأنبياء –عليهم السلام– يبحثون من خلال ندائهم لأقوامهم عن أواصر القربى وأفضل العلاقات، فإبراهيم عليه السلام كان ينادي أباه الذي وقف في وجه دعوته مخالفا لعقيدته بقوله: (يا أبتِ) ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم: 42–45)، ومن عجيب ما ورد في القرآن أن يذكر الحوار الذي دار بين نبي الله إبراهيم وبين ابنه النبي إسماعيل عليهما السلام، وإذا به

(1) الطبري (ابن جرير)، جامع البيان في تأويل القرآن، ج2 ص463.

ينادي أباه بنفس الصيغة التي نادى بها إبراهيم أباه، فلا فرق في النداء أن يكون الأب أحد صانعي الأصنام والداعي لها أو أن يكون خليل الرحمن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: 102).

كان مؤمن آل فرعون ينادي من يحاورهم بألفاظ حسنة وذات مدلول ايجابي، فخاطبهم باعتباره واحداً منهم بقوله (يا قومِ)، مستدعياً بذلك في أنفسهم بهذا النداء علاقة الانتساب إلى نفس المجتمع والقوم الذي ينتسبوا إليه.

وقد كرر نفس صيغة النداء في ذات الحوار ست مرات، لم يمل منه ولم يستبدله لا في أول الحوار ولا في وسطه ولا في نهايته، فكثيرا ما يكون المتحاورون عند نهاية الحوار أكثر حدة ونفرة إن لم يصلوا إلى اتفاق، أما مؤمن آل فرعون فعندما كثر لجج قومه وعنادهم وظهر تكذيبهم كان آخر نداء له في حواره معهم: ﴿يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾.

وهذه الصيغة من النداء تستدعي إصغاء المحاوَر لما بعد النداء، فمن خلال هذا النداء كان مؤمن آل فرعون يرسل رسالة الانتماء لقومه، رغم اختلاف الدين والعقيدة بينه وبين قومه، فاختلاف الدين لا ينافِ علاقة النسب ولا أواصر القرابة ولا روابط الوطن، وفيه أيضا إشارة إلى الأخوة والرحمة الإنسانية التي تجمعه مع قومه.

المطلب الخامس

المجاراة في الحوار

يحتاج المحاوِر إلى المجاراة ليتدرج في الحوار مع المخالف خطوة خطوة حتى يصل معه إلى هدف الحوار دون أن يقطع خيوط الود والاحترام، والمجاراة: (هي مسايرة المخاطب بحسب ظاهر كلامه، والتغاضي عن مراده منه، والبناء على ظاهر كلامه كأنّه هو مقصودُه الحقيقي)[1].

مجاراة المخالف في الحوار أسلوب أَقَرَّه القرآن، جاء في حوار سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه ما يؤيد ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: 76–79)، قال ابن كثير رحمه الله: (والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرا لقومه، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام)[2].

ولقد وصف الله عز وجل مؤمن آل فرعون بالإيمان رغم أنه قال عن موسى عليه السلام: ﴿إِنْ يَكُ كَاذِبًا﴾، وهذا لم يكن من باب الشك بل هو من باب المجاراة في الحوار، وهو كذلك ليس من باب الغموض أو المجاملة والخداع بل هي ضرورة المجاراة ليسهل حواره مع الآخر.

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، (فإن قلت: لم قال: بعض الَّذِي يَعِدُكُمْ وهو نبي صادق، لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟ قلت: لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى ومناكريه إلى أن يلاوصهم[3] ويداريهم، ويسلك معهم

---

(1) حبنكة (عبد الرحمن حبنكة الميداني)، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ج2 ص469.

(2) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير)، تفسير القرآن العظيم، ج3 ص292.

(3) قوله «إلى أن يلاوصهم ويداريهم» في: اللَّوْص من الملاوَصة، وهو في النَّظَر كأنه يَخْتِل لِيَرُوم أَمْراً. والإنسانُ يُلاَوِصُ الشجرةَ إذا أراد قَلْعَهَا بالفأس، فَتَراه يُلاَوِصُ في نظرِه يَمْنَةً ويَسْرَةً كيف يَضْرِبُهَا. (الأزهري، تهذيب اللغة، ج12 ص168).

طريق الإنصاف في القول، ويأتيهم من وجهة المناصحة، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه)[1].

الخاتمة:

إن أهم ما يؤكد عليه الباحث في الخاتمة: أن موضوع البحث من المواضيع العملية الواقعية، ويرجو أن يُسهم في توسيع دائرة الوعي المعرفي والنضج السلوكي لدى المسلمين عامة والدعاة إلى الله خاصة في الحوار مع المخالف.

أولا: أهم النتائج

توصل الباحث من خلال البحث إلى النتائج الآتية:

1- إن الحوار من أهم وسائل وأساليب الدعوة إلى الله تعالى، وأن للحوار الناجح والمثمر آداباً وأخلاقاً ينبغي معرفتها والتزامها والتخلق بها.

2- إن الرحمة والتواضع والحرص على المحاوَر في الحوار تعد من أهم جسور التواصل التي تفتح الطريق للنجاح في أي حوار مع المخالف.

3- إن الصبر وطول النفس والشجاعة من أهم الأخلاق التي تعتبر زادا للاستمرار في الحوار والجدال بالتي هي أحسن مع المخالف.

4- إن فهم موضوع الحوار ومعرفة المحاور لمن يحاوره لهو نور وبصيرة، بها يعرف كيف يتعامل ويحاور المخالف، فيكتم ما يستحق كتمانه عند الحاجة، ويقدم ما يستحق التقديم ويؤخر ما يستحق التأخير.

5- إن تلك النداءات وذلك الخطاب الذي استخدمه مؤمن آل فرعون ليحمل في طياته من جميل العبارات ومعاني القرب الشيء الكثير، رغم ما واجهه من تكذيب وسخرية وأذى

(1) الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج4 ص162-163.

منهم، وما أحوج الدعاة اليوم إلى استلهام هذه التجربة والتعلم من أساليبها، فإن الله لم يذكر لنا هذه الأساليب إلا لنتعلم منها.

6- إن الحاجة الماسة اليوم أن يتعلم الدعاةُ الخطابَ والحوارَ الذي يُشعر المدعوين بالقرب والعلاقة والانتماء إليهم بكل وجوهها الممكنة، فإن هذا مما يذيب الحواجز، ويقرب ما ابتعد من المسافات، ويمنح الدعوة والداعي فرصاً من التقارب والتصالح والتأثير على المجتمع.

7- إن نجاة موسى عليه السلام ومؤمن آل فرعون دليل على أن الكلمة الصادقة أقوى من السلاح، وأن الحجة والبينة في الحوار السليم والهادف أبقى في العاقبة من الطغيان.

8- إن واجب الدعاة والعلماء اليوم وهم يقومون بدورهم الدعوي والحواري الإسلامي أن يهتموا بتوجيه أفكار شباب المسلمين، وتفعيل طاقاتهم للقيام بدورهم في تطوير وخدمة المجتمعات ووضع بصماتهم فيها بالحكمة والموعظة الحسنة واجب أخلاقي ديني.

ثانيا: أهم التوصيات يوصي الباحث بالآتي:

1- أن تقوم المؤسسات العلمية المهتمة بالحوار والدعوة مع المخالفين بتعليم وتوجيه المسلمين عامة والدعاة خاصة بهذه الوصايا الربانية الواردة في القصص القرآني والمتعلقة بأدب الحوار مع المخالف، فهي توجيهات يحب أن تعطى الكثير من الدراسة والتأمل.

2- أن يسهم كل من لديه القدرة في إقامة مؤسسات توعية للدعاة، وتفعيل ما هو قائم منها حتى تحقق غرضها الشرعي والدعوي على ضوء هذه الآداب والأخلاق.

3- إن الأمن الفكري مقدم على غيره، فكما أن الدول تنفق المليارات لحماية الأمن العام – وهذا واجبها– فإن حماية عقول أبناء المجتمع من أفكار الغلو والتطرف بالدعوة والحوار أهم منه، فسلامة العقول يمثل مرحلة الوقاية النافعة والمجدية، وذلك حتى يستفيد المجتمع من عقول أبنائه، فإذا احتضنتهم أفكار التطرف والإرهاب فإنهم يفسدون حياة أنفسهم

وحياة الآخرين معهم، ولذلك لا بد أن تقام لها المؤسسات المناسبة والمتخصصة، وأن تنفق لها الأموال، وأن تقام لها التحالفات العربية والإسلامية، ولتكن عاصفة الفكر والحوار موازية لعاصفة الحزم.

4- أن تقام مؤتمرات علمية مشابهة لهذا المؤتمر يقدم فيها المختصون والمهتمون بمكافحة الإرهاب ونشر الدعوة والحوار مع المخالف في تلك البلدان دراسات تعالج واقعهم، وبحضور رواد العمل الإسلامي فيها.

المصادر والمراجع

1- الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد)، *تهذيب اللغة*، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، 2001م.

2- الألباني (محمد ناصر الدين)، *سلسلة الأحاديث الصحيحة*:- المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، 1983م.

3- ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني)، مجموع الفتاوى، المحقق: أنور الباز – عامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثالثة 1426 هـ / 2005م.

4- حبنكة (عبد الرحمن حسن الميداني)، *البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها*، الناشر: دار القلم – دمشق، الدار الدمشقية – بيروت، الطبعة الأولى 1416ه – 1996م.

5- الخالدي (د. صلاح عبدالفتاح)، *مع قصص السابقين في القرآن الكريم*، دار القلم – دمشق، الطبعة الخامسة 1428ه – 2007م.

6- الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر)، *البرهان في علوم القرآن*، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، 1376هـ – 1957م.

7- الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر)، *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*، الناشر: دار الكتاب العربي. بيروت، سنة الطبع: 1407هـ.

8- سيد قطب، *في ظلال القرآن*، دار الشروق، الطبعة العاشرة: 1400ه – 1980م.

9- الشنقيطي (محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني)، *أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن*، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، عام النشر: 1415هـ – 1995مـ.

10- الشوكاني (محمد بن علي بن محمد)، *فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير*، دار النشر: دار الفكر – بيروت.

11- الطبري (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي – أبو جعفر)، *جامع البيان في تأويل القرآن*، المؤلف: تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ – 2000م.

12- الفيروز آبادي (محمد بن يعقوب)، *القاموس المحيط*، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1426هـ.

13- ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي)، *البداية والنهاية*، الناشر: مكتبة المعارف – بيروت، الطبعة الأولى: 1966م.

14- ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي)، *تفسير القرآن العظيم*، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ – 1999م.

15- النيسابوري (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري)، *الجامع الصحيح*، المسمى: (*صحيح مسلم*)، المؤلف: الناشر: دار الجيل – بيروت + دار الأفاق الجديدة – بيروت، 1983م.

جامعة الناصر

AL-NASSER UNIVERSITY